

روسيا الكيفية

د. وفاء بنت عبد الله المزروع

oboeikan.com

روسيا الكيفية

المقدمة :

لم يعرف الروس بهذا الاسم حتى وقت طويل من تاريخهم ، ولا يمكن أن نتبع بداياتهم بالتفصيل بسبب نقص البيانات التاريخية ، فلم يتعلم الشعب الروسى فن الكتابة حتى القرن التاسع الميلادى ، لذلك لم يترك أية سجلات مكتوبة عن حياته ، ولهذا لم يكن أمام المؤرخين إلا الاعتماد على مصادر أخرى للحصول على معلومات عنهم مثل : الاكتشافات الأثرية لمدافنهم ، وبقايا منازلهم ولوازمهم العائلية ، والمعلومات والتفسيرات عن حياتهم بواسطة الكتاب المعاصرين اليونانيين واللاتينيين والبيزنطيين والعرب ، إلا أن تلك المعلومات وجدت غير كاملة ومتناقضة .

يبدأ التاريخ المبكر للشعب الروسى منذ بداية العهد المسيحى حيث كان أسلاف الشعب الروسى يعيشون فى المناطق التى أصبحت : بولندا الشرقية وأوكرانيا الغربية وروسيا البيضاء ، وكانوا لا يزالون شعباً بدائياً يتحدثون اللغة السلافية ، والتى اتخذ أصحابها طريقهم إلى الهجرة البطيئة والمستمرة . لكننا لا نستطيع أن نعرف تاريخهم بدقة ، غير أنه مع حلول القرن السادس انفصلوا وانقسموا إلى ثلاث مجموعات تركت تأثيرات مختلفة للمناطق التى مروا بها ، واستقروا فيها وانقسموا إلى ثلاث مجموعات : الغربية والجنوبية والشرقية .

١ - هاجر السلاف الغربيون إلى أثمار الألب والأودر والفيستولا ، وتأثروا بالحضارة الغربية (الأوروبية) ، واعتنقوا الكاثوليكية ، واستخدموا الحروف اللاتينية .

٢ - أما السلاف الجنوبيون ، فقد اتجهوا عبر جبال الكارثيان إلى البلقان ، وأصبحوا تحت تأثير الحضارة البيزنطية ، واعتنقوا المذهب الأرثوذكسى ، واستخدموا حروفه .

٣ - أما السلاف الشرقيون (أسلاف الروسيين) وهم موضع الدراسة ، فقد اتجهوا شرقاً إلى بحيرة بيبوسى وبحيرة المين ونهر الدينير والأوكار والفالوج ، وتأثروا بالحضارة البيزنطية وأصبح بينهم وبين السلاف الجنوبيين مميزات متشابهة واعتنقوا المذهب الأرثوذكسى فيما بعد .

إن لفظ روسيا لم يوجد فى لغة من اللغات للدلالة على البلاد المعروفة الآن بهذا الاسم إلا إبان القرن التاسع الميلادى ، واستخدم هذا اللفظ عن أحوال هذه البلاد قبل هذا التاريخ من باب التجاوز .

كما أن معظم أهل روسيا يرجعون إلى السلاف الشرقيين ، وطوال العصور الوسطى ظل سكان السهول والبرارى الروسية فى عيشة بعيدة عن الأفكار والمثل والظواهر الحضارية التى شكلت الشعوب اللاتينية والتيوتوية . ثم إن الحركات الكبرى التى هزت غرب أوروبا لم تكن روسيا فى قليل أو كثير ، ولم يمس أولئك الروس شىء من حركة إحياء العلوم القديمة ، كما لم تسهم حركة الإصلاح البروتستانى بشىء أيضاً ، فعاشوا بعيدين عن الحضارة اللاتينية والدراسات التى عكفت عليها أوروبا العصور الوسطى ، كما برئ تاريخهم من برلمانات أو جماعات ، كما أنهم نجوا من الحروب الدينية التى ملأت أوروبا .

والخلاصة : أن روسيا ظلت فى عزلة دون أن تؤثر أو تتأثر بتجربة مما مر من تجارب أوروبا .

هذا وقد قسمت هذه الدراسة إلى : مقدمة وخمسة مباحث ، تناول الجزء الأول أصل الروس ، وتناول الجزء الثانى طوبوغرافية بلاد الروس ، ثم انتقلت إلى الجزء الثالث

وهو عن استقرارهم وبداية تكوينهم . أما الجزء الرابع فتناول تنمية القوة في كييف . أما الجزء الخامس فكان عن روسيا الكييفية وعلاقة الروس بالبيزنطيين .

أصل الروس :

بدأ فجر التاريخ الروسى فى الظهور حول شواطئ البحر الأسود؛ حيث توطنت مجموعة من الجاليات اليونانية القديمة وخلقت حركة تجارية واسعة ، وكان لها نشاط زاهر أحدث أعظم حضارة للقبائل الساكنة قبل أولئك اليونانيين حول شواطئ البحر الأسود فى العصور القديمة ، على أن هذه الحضارة التى أبنعت ثمانية قرون من ٤٠٠ ق. م إلى ٤٠٠م ودلت آثارها المختلفة على مبلغ ذوقها الرفيع لم تلبث أن غدت أثاراً بعد عين بسبب ما غلب عليها من غزوات البرابرة ، والحقيقة، أن ما كان متوقفاً حدوثه من اتصال الروس بأداب اليونانيين الأقدمين وفنوفهم لم يكن يحدث حتى تلاشى فجأة ولم يتجدد بعد ذلك أبداً .

ويتضح من ذلك: أن الروس فى العصر الحاضر لا يدينون إلى هذه الجاليات اليونانية القديمة بشيء سوى ما تبقى من آثار هذه الجاليات فى المتاحف . إن العوامل التى يرجع إليها الفضل فى أول نوع من الحكومة بين الروس لم تكن يونانية بل كانت إسكندناوية ، وهذه لم تأت من طريق سواحل البحر البلطى والبحر الأسود ، ففى ثنايا هذه الأعمار ومنحنياهما ولاسيما نهر نيفا ودينير أنشأ السكندناويون محطات تجارية لأنفسهم منذ القرن الأول الميلادى فيما يبدو ، واستقرت حول هذه المحطات جموع عظيمة فى القرن الثامن الميلادى ، وأخذت هذه الجماعات الروسية عندئذ تتاجر مع السكندناويين فى منتجات الغابات من الفراء وعسل النحل وصمغ العسل ، ثم تطورت هذه إلى مدن ذات حكومات مستقلة ومتاجر ضخمة ، ولما تعرضت له متاجر هذه المدن من عادية القبائل التركية والخزرية والمجرية كذلك ، وما تعثرت به المدن نفسها من منازعات داخلية قامت فئات من شجعان الشماليين السويديين بتوفير الأمن وجمع الضرائب وحماية القوافل . من هذه الفئات يبدأ تاريخ روسيا وأهمها فئة الزعيم روريك Rurik

الذين سماهم جرانهم الأصليون في فنلندا قبل رحيلهم جنوبًا باسم: روستي Rusty، وهي تسمية لصنقت بهم وصارت علمًا جغرافيًا على جميع البلاد التي حلوا بها منذ سنة ٨٦٣ وتلك عدا تسميتهم باسم الفرائنجيين Varegues ومعناها الأسلاف في لغات الشماليين، ذلك أن جميع الأنهار والبحيرات الممتدة من البحر البلطي والبحر الأسود لم تلبث أن غدت في قبضة أولئك الشجعان الشماليين بعد أن ثبتوا أنفسهم في نوفجورود^(١) Novgorod وكييف Kiev وأسسوا تجارة واسعة من الرقيق، وظلوا يغامرون بأنفسهم أقصى مغامرة في جرة منقطعة النظير، فأغاروا على القسطنطينية، وحاولوا فتح بلغاريا وتجروا على الإمبراطور البيزنطي في عاصمته القسطنطينية ونالوا بحد السيف هذه العاصمة المتعالية أنواعًا وألوانًا من الامتيازات التجارية.

والواقع أن الشماليين تعلموا الكثير من مبادئ الحياة السياسية بعد احتكاكهم بالبيزنطيين.

ومحمىء روريك وإخوته سنة ٨٦٢م وصل هؤلاء الأمراء إلى بلاد الصقالية (السلاف) وأخذوا في سياستها وتدير شؤونها، فبنى أكبرهم روريك مدينة في سهل منبسط أطلقوا عليها لادوجا Ladoge وجعلها عاصمة البلاد، وسكن الثاني مدينة بيلو أوزيرو Beloozero، والثالث اختار مدينة إيزبورسك Izborsk. ومن ذلك الحين صارت أرض الصقالية (السلاف الشرقيين) تدعى بلاد الروس نسبة إلى عائلة الأمراء، وابتدأ تاريخ المملكة الروسية من سنة ٨٦٣ م، وبعد سنتين مات الأميران فاستلم روريك زمام الحكم بلا معارض، واختار مدينة نوفجورود عاصمة لبلاده، ومنها تسلل الأمراء والملوك الروس.

وقد شعر الصقالية نوعا من الراحة تحت سلطة الأمير روريك، وقلت الفتن والمقاومة فيما بينهم، وانتشرت قواهم وصاروا يؤلفون إمارة قوية يخشاها الجيران ولا يقوون على محاربتها أو قهرها^(٢).

(1) Edward Acton: The Present and the Past, Russia 1987- London- P. 17.

(2) Oblonsky, Companion to Russian Studiesan Introduction to Russia History. P. 16

ولقد استمدت روسيا كيانها الاجتماعي والسياسي من امتزاج جموع متعددة من المستوطنين ، ومن أوائل هؤلاء الصقالية الذين سكنوا مناطق السهوب ، ويرجع هؤلاء لغويا إلى الشعوب الإيرانية . أما اجتماعياً فهم أقرب في العادات إلى الشعوب المغولية ، ظهروا في الأقسام الجنوبية الروسية منذ القرن السابع ق. م . وكانت لهم علاقات تجارية مع المستعمرات اليونانية في تلك الجهات ، وأشار إليهم هيرودوت في القرن الخامس ق. م بأنهم منتشرون في مناطق الدانوب والدينير والدون^(١) .

ويذكر المؤرخ بيتر Baynes بأن الرومان أطلقوا على السلاف (السكلاف) وكانوا يتجولون مع قبائل مشابهة لهم في جهات الدانوب الشمالية في أواسط القرن السادس^(٢) . هذا بالنسبة إلى المصادر غير العربية . أما أول إشارة لهم في المصادر العربية أى الروس ، فقد جاءت على لسان اليعقوبي عند حديثه عن الأندلس ووصف مدن هذا الإقليم : (وغربي المدينة - التي يقال لها الجزيرة - مدينة يقال لها أشبيلية ... دخلها الجوس الذين يقال لهم الروس سنة ٢٢٩ هـ فسبوا ونهبوا وحرقوا وقتلوا)^(٣) .

أما المسعودي فيذكر : (وقد كان الثلثمائة وردوا إلى الأندلس مراكب من البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم وزعم أهل الأندلس أنهم ناس من الجوس تطرأ إليهم في هذا البحر كل مائتين من السنين وأرى والله أعلم أن هذه الأمة هي الروس إذ كان لا يقطع هذه البحار غيرهم)^(٤) .

وكذلك ابن حوقل في معرض حديثه عن مراكب الروس والترك والصقالية^(٥) ويتضح من ذلك أنه يقصد بالروس هنا النورمان أو أهل الشمال ، الذين ذكرتهم المصادر العربية باسم الجوس أو الأردمانيين الذين شنوا العديد من الإغارات على

(1) G. Vernadsky, History of Russia- Yala- 1145. P.P. 21-22.

(2) N. Baynes And. H. Moss, Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization. Oxford. 1961. P. 398.

(٣) المسعودي : كتاب البلدان ، إبريل ، ١٩٧٦ م ، ص ٣٥٤ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ط ١ ، ص ١٦٣ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ، لندن ، ١٩٧٢ م ، ص ١٦٣ .

الأندلس في عام ٢٢٩ هـ / ٢٣٠ هـ / ٢٤٥ هـ^(١) ، والذين كان يطلق عليهم في العصور الوسطى الفيكنج Viking الذين سكنوا شبه جزيرة اسكندناوة والبحر البلطي^(٢) .

وعرف البيروني الكثير عن البحر البلطي وعن سكان الشمال وشرق أوروبا وخاصة هؤلاء النورمان الاسكندنافيين الذين يدعونهم باسم الروس أو الورك أي: (الفارنجيين) Vargues ، كما جاء في كتابات المؤرخ الروسي فطور^(٣) .

ويبدو أن المؤرخين العرب خلطوا بين أجناس الفيكنج ، ولم يفرقوا بين الدانيين الذين هاجموا بلاد الأندلس وبين السويديين الذين ارتحلوا إلى البلاد الروس واتحدوا مع السلاف .

ويذكر البيروني : (وأما في مغرب المعمورة ... البحر المحيط ويسميه اليونانيون أوقيانوس يمتد نحو الشمال بمحاذاة أرض الصقالية ويخرج منه خليج عظيم) أي بحر البلطي (في شمال الصقالية ... ويعرفونه ببحر ورنك وهم أمة على ساحله)^(٤) .

وكلمة الورك أو الفارنجيين تعني عضو اتحاد التجار ، وهي مشتقة من الكلمة الاسكندنافية فار Var أي العهد أو العقد - وتشير كلمة الورك إلى مغامرة النورمان الذين ارتبطوا بعهد أو تضامن ، كما تعني الأحلاف في لغة الشماليين؛ وعلى هذا فإن إشارات السيعقوبي أو المسعودي وابن حوقل قد أرجعت الروس إلى النورمان وأهل الشمال إلى الفيكنج . أما إشارة البيروني فقد حددت انتماء الروس على فرع واحد من

(١) المقري : نفع الطيب ، ط ٣ ، ١٩٣٦م ، ص ١٢٠ ، ابن عذارى البيان ، ط ٢ ، ١٩٥٠م ، بيروت ، ص ١٢٩ - ١٣٢ ، ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإيباري ، ١٩٨٢م ، القاهرة ، ص ٧٨ - ٨١ .

(٢) فشر : أوروبا العصور الوسطى ، ط ١ ، ترجمة محمد مصطفى ريان والسيد الباز العريني ، ١٩٦٨م ، القاهرة ، ص ١١٥ .

(٣) البيروني : كتاب الفهم لأوئل صناعة التنجيم ، نشر : رمزي رايت ، اسكفور ، ص ١٢١ - ١٣٣ .

(٤) ليلى عبد الجواد : تاريخ الروس ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، دار الثقافة العربية ، ص ٢ .

فروع النورمان أو الفيكنج وهو الفرع الإسكندنافي أو السويدي بصفة خاصة ، وقد سكن هؤلاء البحر البلطي أو بحر ورنك كما يطلق عليه البيروني^(١) .

ويرجع الباحثون الغربيون أصل الروس إلى أهل الشمال (النورمان) Northman ، وقد استند هؤلاء على ما جاء أولاً : في التاريخ المسمى The Russian Primary Chronicie الذى كتب في القرن ١٢ وحدد (٨٥٢ - ١١١٠ م) ، والذى يعتبر الروس شعباً نورمانيا . وقد استند إلى ما جاء في حوليات برتيناني Annales Bertiniani في عام ٨٣٩ م أنهم وصلوا في هذا العام إلى الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل يحملون هدايا ثمينة وخطابا للإمبراطور ، وأن الإمبراطور استقبل الرسل في إنجلهيم (Ingelhim) وعندما سئل هؤلاء عن جنسيتهم ذكروا أنهم من الروس Rhos وأن ملكهم يحمل لقب خاقان Chacanus ، وتحرى الإمبراطور عن هؤلاء الروس ، ودل البحث في شخصيتهم على أنهم من أهل السويد Suedois . ويتضح من هذا الأصل الإسكندنافي للروس أنهم من السويديين كما ذكرنا سابقاً^(٢) .

إن الفانيين (Finnois) والفنلنديين أطلقوا على العناصر الشمالية التي تغلغت بلادهم وخاصة الورنك اسم ريوتسى Ruotsi ، ومن ثم فهو في الروسية (روسى) ، وأصل كلمتي ريوتسى وروسى كلمة اسكندنافية تعني الجندفون أو هي لفظ فني يعني النواتية أو البحارة ، وقد التصقت بهم هذه التسمية وصارت علما جغرافيا على جميع البلاد التي حلوا بها منذ عام ٨٦٢^(٣) .

(١) البيروني : المراجع السابقة ، ص ١٢١ .

(2) Obolensky, Byzantin Commonwealth Eastern Europe 500- 1453. London. 1971. P.P. 181. I Cam. Med. His V. 4. Part. I. 1964. P.P. 96-504.

Flornsky: Russia, V.I. New York- 1953- P.P. 15- 16.

Mawer: The Vikings. P. 327. I Rambaud: Histaire de La Russie.

(3) Minorsky (ed) Hudud al Alam- London- 1937. P. 432. Pares: A History of Russia- London- 1962. P. 54.

إن عددا كبيرا من أسماء أمراء الروس كانت أسماء اسكندنافية مثل : روريك Rurik - Hroereek وأيجور Igor - Ingvar وغيرها^(١) .

وهناك رأى آخر أورده ابن خرداذبه فى أصل الروس ، فعندما تحدث عن التجار الروس ذكر : (إنهم جنس من الصقالية) ، وعند حديثه عن مسلك هؤلاء التجار ذكر أيضا : (إنهم يسيرون فى تيسى نهر الصقالية)^(٢) .

وعلى هذا فقد أرجع ابن خرداذبه أصل الروس إلى الصقالية أو السلاف ، ويتفق مع رأى الباحثين الروس الذين يرجعون أصل الروس إلى قبيلة سلافية كانت تسمى بالروس Ros أو Rus وكانت هذه القبيلة تعيش فى منطقة السهوب ، وكانت مدينة رودون Roden هى مركز هذه القبيلة وسرعان ما تعرض سلاف السهوب لهجمات من جانب كل من القوط والهون والأفار الذين اجتاحتوا البحر الأسود ، ونتيجة لهذه الهجمات اتحدت قبائل السهوب السلافية وكونت تحالفا قريبا كبيرا بزعامة قبيلة الروس هذه وأخذ هذا التحالف اسم هذه القبيلة أى اسم (الروس) وذلك فى القرنين: السادس والسابع الميلاديين . كما اتخذ هذا التحالف من مدينة رودون Roden والأراضى التى تجاور نهر الروس أى إقليم الدنيبر الأوسط مركزا له ، ثم ما لبث هذا التجمع القبلى أن نقل مكانه إلى مدينة كييف مركز البلويتر Polianes شعب السهل جيران الروس الشماليين ، وسرعان ما تحول هذا التجمع إلى دولة إقطاعية تحمل اسم الروس^(٣) .

وإذا كان ابن خرداذبه قد اعتبر الروس من جنس الصقالية ، واتفق معه الدارسون السوفيت ، فإن المقدسى يفصل تماما ما بين الروس والصقالية إذ يذكر : (ويتأخم بلدهم (أى الروس) بلد الصقالية فيغيرون عليهم ويأكلون أموالهم ويبيوتهم)^(٤) .

(1) Rambaud, Histoire de la Russie. P. 39.

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، إبريل ، ١٨٨٩ ، ص ١٥٤ .

(٣) ليلى عبد الجواد ، تاريخ الروس ، ص ١١ .

(٤) المقدسى : كتاب البدء والتاريخ ، ط ٤ ، ص ٦٦ .

أما ريباكوف Rybakov يذكر أن هذا الفصل لا يعنى تعارض مكان الصقالية ووصفهم بالنسبة للروس ، ولكن هذا فقط على الصعيد الجغرافي ، وفي الفترة التي كان الروس يستعدون فيها لإقامة دولة لهم ولم يكونوا قد اتحدوا مع السلاف الشرقيين^(١) .

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وبعد أن قامت دولة الروس يذكر ابن حوقل : أن الروس اسم المملكة والناحية لا للناس والقبيل ، ونستنتج من ذلك أن الروس أصبحوا معنى سياسيا .

ويبدو من ذلك كله أن للمصادر العربية آراء مختلفة حول أصل الروس ، فمنهم من يرى أنهم من النورمان أو أهل الشمال بصفة خاصة الاسكندنافيين ، ومنهم من اعتبرهم من الصقالية ، وليس هذا الأمر بغريب فقد حار الغرب بدوره في تحديد أصلهم ، ويرجح أنهم من الفرع الشرقي من الفيكينج (أى السويديين) الذين سرعان ما امتزجوا بالسلاف الشرقيين وقبلوا أن يطلق عليهم اسم الروس الذي سرعان ما أصبح علما عليهم .

طبوغرافية بلاد الروس :

إن هجرة السلاف الشرقيين جاءت بهم إلى المنطقة المعروفة الآن بالسهل الروسى ، ويمتد هذا السهل من أوروبا الشرقية إلى سيبيريا الوسطى ، ومن المحيط المتجمد إلى جنوب جبال الكاربيين Carpathian والبحر الأسود القوقاز وبحر قزوين Caspian وجبال آسيا الوسطى . وتعتبر سلسلة جبال الأورال هي التي تشكل شطرا شماليا جنوبيا ويصل ارتفاعها فوق ١٢٠٠ قدم . أما الطرق المائية للسهل الروسى والتي يبلغ طولها حوالي ٧٥٠٠٠ ميل تساعد على التغلب على عوائق امتدادها العظيم ، وتعتبر الأنهار متعددة وطويلة وصالحة للملاحة .

ويمكن الوصول إليها من واحد إلى آخر بواسطة الأنهار والبحيرات معا ليصبح النقل البحري ممكنا تقريبا من أى اتجاه . ويعتبر نهر الدينير والفولجا رابطين لأعظم خطين

(1) Rybakov, Early Centuries. P.P. 9- 17.

مائيين في روسيا ، ويمر خط البحر البلطيقى إلى البحر الأسود من خلال بحيرات عظيمة، ومن هذه البحيرات يمكن الوصول إلى بحر البلطيق والبحر الأبيض^(١) .

أما الإقامة على السهل الروسى فحينما اقترب السلاف الشرقيون من السهل الروسى في القرنين السادس والعاشر اختاروا أن يستقروا في أراضي الإستيبس التى يسهل الوصول إليها جغرافيا والمرغوب فيها اقتصاديا بالنسبة للغزاة . وكان مجيء الفارزار Farther إيدأنا بالحروب فقد بدأوا في تأسيس حكمهم في المناطق المملوءة بمياه نهر الفلجا والدون . إن هؤلاء الذين حاولوا الدخول إلى المنطقة عبر الساحل الشمالى للبحر الأسود وجدوا مستوطنات ومستعمرات تجارية ورومانية في طريقهم ، وفي أراضي الغابة الشمالية كانت القبائل الأصلية^(٢) أقل عددا وأكثر ضعفا من قبائل الإستيبس ، ونتيجة لذلك كان السلاف قادرين على تمكين أنفسهم من مناطق البلطيق التى سكنتها قبائل اللتوانية والتتبية والليفية ، وكانوا قادرين على المطالبة بتوسيع مناطقهم ولكنهم استطاعوا تحقيق ذلك ببطء . وقبل نهاية القرن التاسع كانوا قد شغلوا أجزاء صغيرة مما يسمى الآن بروسيا الأوروبية ، وقد وصلت المستوطنات الرئيسية لهم شمالا إلى بحيرة لادوجا وجنوبا إلى الدينير Dinieper الأوسط والدينستر Dinester وشرقا إلى نهر أوكا Oka .

استقرارهم وبداية تكوينهم :

قبل القرن التاسع كانت حياتهم قوامها العشيرة التى تعيش في بيوت خشبية وتحترق الأرض بواسطة المحارث البدائية التى تجرها الخيول والثيران واعتمدوا على تربية المواشى والصيد في الأنهار ، فكانت حياتهم الاقتصادية ضعيفة تعتمد على البحث عن أراضٍ ومستوطنات جديدة ، وكانوا كثيرى التنقل بسبب تهديد القبائل الأقوى لهم . أما معتقداتهم الدينية فقد انعكست عليها المعتقدات الدينية للسلاف الشرقيين على مستوى إنجازهم الحضارى ، وكان العالم يمثل لهم وجود حياة غامضة مليئة بالأرواح الطيبة

(1) Sidney, op. cit. P. 36.

(2) Obplenky, companion To Russian Studies an Introduction to Russian History. P.P. 246.

والخبثة ، ولقد تعددت آلهتهم ومن أمثلتها : بيرون Perun إله الرعد واستريوج Stribog إله الرياح وغيرهم .

ولم يكن لديهم كهنة قائمون بالخدمات الدينية ولكن كانوا يلجئون إلى السحرة لاسترضاء الأرواح الشريرة . وبُنى تنظيمهم السياسى على العشيرة كما ذكر ، وكانت العشيرة تحت قيادة أكبرهم سنا وهى التى تسن لهم القوانين ، وتمثل مصدر العدالة ، وكانت القبائل تعيش بصورة مفككة إلا فى حالة الحرب واجتياح الأعداء المفاجئ . ومع مرور الوقت بدأت العشيرة تفقد أهميتها^(١) وبدأت المدن تدريجيا بالظهور ، وقد دعم نمو المدن والأحياء الاقتصادى لمدن أوروبا الغربية والشمالية والامتداد الناتج للتجارة بين أوروبا وآسيا الذى نمت فيه أعظم المدن السلافية مثل : كييف Kiev وشيرنيجوف Chernigov على طول نهر الرود . وقد رجت هذه المدن الأخرى من التجارة النامية التى تمثلت فى السلع المهمة مثل : العسل والشمع والعييد التى نقلها التجار وغيرهم إلى القسطنطينية المركز التجارى الرئيسى للإمبراطورية البيزنطية والعربية، وهناك تبادل شحنات الحرير والعطور والتوابل والرماح والسيوف والمعادن النفيسة .

ولقد كان لنمو المدن أثر اقتصادى واجتماعى وسياسى فى حياة السلاف الشرقيين، وقد كان فى كل مدينة مجلس عام يتكون من الذكور ، ومن وقت لآخر يعين لهذا المجلس الأمير الذى يتعهد هو ورجاله بواجب حماية المدينة . أما المغامرون من الرجال فكانوا هم القادرين على التقدم ماديا ، وغالبا ما كان هؤلاء المغامرون يتعاونون مع الأمير . ومع مرور الأيام بدأت تختفى تدريجيا الطبقة المؤسسة للثروة لتظهر الطبقات الوسطى بوضوح .

تنمية القوة فى كييف وازدهارها :

كانت بدايتها القرن العاشر ، وكان الروس المؤسسون فى كييف على درجة من القوة يكفى لأن يستخدموها كقلعة لحماية تجارتهم الموجودة على الدنيبر Dnieper

(1) Sidney, Op. Cit. P. 7.

ومن الأخطار الممتدة في طريقهم إلى القسطنطينية^(١) أثناء المائة سنة التالية . وأثبت الأمراء الكييفيون قدرتهم على تقوية مراكزهم وتوسيع سلطتهم على القبائل والمدن الموجودة على طول نهر الرود بالإضافة إلى ضم مناطق جديدة للدولة المسيطرة عليه . ولم يكن تقدمهم سريعا ولا سهلا بل عانوا فيه الشيء الكثير ، واستطاعوا بإصرارهم على العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية^(٢) .

وعندما استولى سفاييتوسلاف Sviatoslav بن إيكور (إيجور) ٩٤٥ - ٩٦٤ م على الحكم بدأ عهد دولة كييف التوسعي ، إذ وجد المدينة قوية سياسيا واقتصاديا وعسكريا تكفى لتحرير محاولة امتداده للعالم الموجود تحت حكمه ، وقد اتجه أولا إلى الشرق بغزو الخرز Khazars^(٣) وضم أراضيهم الموجودة على الفولجا Volga والدون don تنفيذًا لأوامر الإمبراطور البيزنطي فاتجه بقواته إلى الغرب ضد البلغار Bulgar الموجودين على الدانوب Danube ، وهناك ضم أكثر من إقليم للدولة الكييفية .

ولقد أخذ البيزنطيون يتوجسون خيفة من توسع نفوذ دولة كييف في جهات البلقان الشمالية ، لذلك حاض الإمبراطور حنا زيمسكس John Zimiscees معركة ضد سفاييتوسلاف أجبره على الانسحاب من بلغاريا سنة ٩٧١ م ، كما اشتبك الأخير عند رجوعه إلى كييف في معركة مع قبائل البشناق Pecheneg ، التي أخذت تنهال على

(١) شكل الخرز حاجزا اقتصاديا بين تجار الشمال في الأجزاء الشمالية الروسية والمناطق البلقانية - ولم يكن بمقدور الشماليين القيام بحركة عسكرية عامة ضد الخرز لقتالهم عدديا . لذا وجهوا الدعوة لأبناء جنسهم من الشماليين سنة ٨٥٦ م فاستجاب الزعيم رويك لهذه الدعوة ، وكان هذا حكما على الأقسام الجنوبية من جواتلاند وفريزلاند ، وقاد جموعه نحو الجهات الروسية ، فأنشأ نوفوجورود وجعلها مقرا لإمارته سنة ٨٦٠ م وتولى الحكم بعد وفاته أوليج Oleg بصفته وليا على إيجور . ويعتبر أوليج المؤسس الحقيقي لدولة كييف ، إذ تمكن من الاستيلاء على تلك المدينة سنة ٨٧٨ م التي كانت يحكمها السويديون القدماء ، والتي أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لأسرة رويك الحاكمة . وأدى توسع دولة كييف جنوبا إلى الاصطدام مع البيزنطيين .

(2) B. Grkov, Kievrus. Moscow. 1959. p. 382.

(3) Vasilliev, Historyog the Byzantine Empire. Vol. I. Madison. 1964. 310

الجهات الروسية في آسيا ، والتي أسفرت عن مصرع الأمير سفايوتوسلاف ، وهذا ما نراه في العلاقات الروسية البيزنطية^(١) .

وهكذا أصبحت مدينة كييف الروسية دولة لها كيانها تحت حكم سلالة ريوريك^(٢) ، وذلك لهيمنتها على مجموعة من المستوطنات الكبرى التي حكمتها حكما شاملا ، نشرت العدل بين ربوعها ، وأمنت شر جيرانها ، وتوسعت في علاقاتها التجارية مع الدولة البيزنطية مما أدى إلى نمو ثروتها ورسوخ واستقرار كيانها السياسي .

روسيا الكيفية :

رغم أن مناطق السهل الروسي كانت معبرا ومقرا للكثير من الشعوب والقبائل قبل مجيء السلاف الشرقيين ، إلا أنه لم ينجح أحد في تكوين نظام حكم دائم ومستقر كما فعل الروس ولكن بعد التغلب على كثير من الصعوبات والعراقيل التي اعترضتهم .

أما عن بداية تأسيس دولتهم فلا يمكن استعراض الأحداث التي مرت بهم أثناء فترة ارتباطهم بالفارنجيين ، وذلك بسبب نقص المصادر الموثوقة فيذكر أن الفارنجيين الوثائقين من قوتهم الفائقة بدءوا في تجميع الضريبة من السلاف الشرقيين في منتصف القرن التاسع ، وأدى ذلك إلى ثورة السلاف الذين قاموا بدورهم وطردوهم إلى اسكندنافيا ، ولكن هذه الفوضى لم تلبث أن تحولت إلى محاولات من السلاف لعود الفارنجيين مرة أخرى لحكمهم وتنظيم أمورهم واستقرار دولتهم التي بدأت بمجيء الإخوة الثلاثة الفارنجيين: ريوريك Rurik - سينوز Sineus وتروفو Truvor الذين استجابوا للنداء وجاءوا مع أتباعهم المسلحين ، وقد نصب ريوريك نفسه أميراً على نوفوجورد Vovgorod وسينوز أميراً على بيلوزيرو Beloozero وتروفو أميراً على إيزوبورسك . وفي خلال عامين مات كل من سينوز وتروفو تاركين ريوريك حاكماً على مناطقهم بينما اهتم ريوريك بولايته الكبرى ، ونصب أتباعه من السلاف والفارنجيين على الولايات الأخرى فحرصوا على الاهتمام بولاياتهم وقاموا بإقامة

(1) Cam, Med. His. V. T. IV. P. 207.

(2) B. Qrekov, Kiev Rus. P. 365.

اتصالات تجارية ممتدة من الجوار . وبوفاة ريبوريك عام ٨٧٩م اعترف بابنه إيجور كوريث له ولكنه كان طفلا صغيرا فنصب قريبا له يدعى أولج Oleg . ولقد أثبت أولج أنه أكثر طموحا وقوة من ريبوريك في توسيع وتقوية ولايته ، فقد استولى على كييف وأسس هناك حكما مركزيا على المدن الأخرى التي أخضعها والتي تشمل المراكز التجارية المهمة مثل : سمولنسك ونوفوجورد .

والواقع أن أولج يعد من أشهر الحكام الذين أغاروا على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وهو الذى أجبرهم على دفع الجزية للروس عام ٩١١م^(١) .

علاقة الروس بالبيزنطيين :

الواقع أن العلاقة بين الروس والبيزنطيين قامت على صراع دائم ، فأول إغارة قام بها الروس على الإمبراطورية البيزنطية كانت عام ٨٦٠م على القسطنطينية . والواقع أن الهجوم الروسى لم يستهدف الغزو من أجل السلب والنهب والغنائم ؛ لذلك عادت القوات الروسية بعد أن حققت أهدافها فيما رمت إليه .

ثم تجدد الصراع مرة أخرى في عهد الإمبراطور لى يو السادس من ٨٧٠ - ٨٨٦م ، واقتحم الروس بقيادة أميرهم أولج Oleg المياه البيزنطية ووصلوا حتى أسوار العاصمة عام ٨٩٧م ونجح الروس في إنزال بعض الخسائر ببعض المواقع البيزنطية وانتهى الأمر إلى التفاوض بعقد اتفاق بين الطرفين ، وتجدد هذا الاتفاق مرة أخرى عام ٩١١م في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع الإمبراطور البيزنطى ونصت بنود هذا الاتفاق على منح تسهيلات وامتيازات بحرية في الأرض البيزنطية واستمر السلام قائما بين الطرفين لمدة ثلاثين عاما انتعشت خلالها التجارة بينهم ، واستمر البيزنطيون في سياستهم التي ترمى إلى كسب الروس إلى جانبهم .

وفي عام ٩٤١م تعكر صفو السلام بين الطرفين ؛ فقد قام الأمير الروسى إيجور بحملة فجائية على العاصمة البيزنطية ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور ورسّت القوات الروسية على الشاطئ الأسيوى للبسفور في إقليم Bithynia ونهبوا وسلبوا

(1) Sidney: op. cit., p. 11-12. B, Grekov, Kiev Rus. P. 366.

وعادوا بالغنائم ، في الوقت الذي كانت القوات البيزنطية تحارب في المشرق ، فاستدارت القوات برئاسة حناكور أو كس John Cur Cuas وهزمت الروس شر هزيمة في إقليم بثنيه وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحري قاد حملة بحرية عليهم وهم يعدون العدة للانسحاب ونجح في تدمير معظم سفنهم ، ثم عاود الروس الإغارة على الأراضي البيزنطية في خريف عام ٩٤٤م واستعدوا استعدادا ضخما هذه المرة وتحالفوا مع البشناق لضرب الإمبراطورية البيزنطية ، وحدود نهر الدانوب بدلا من الشاطئ الآسيوي ليكونوا على مقربة من البشناق ، ولكن الإمبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة الروس والبشناق لاشتغالها بحروبها في الشرق . فعقدت معاهدة تجارية كانت لصالح الروس . ثم ساد السلام بينهم وتوطدت^(١) أركان الصداقة ، عندما زارت الإمبراطورية أولجا أرملة إيجورد - الوصية على العرش الروسي - القسطنطينية عام ٩٥٧م حيث تم استقبالها استقبالا حارا ، وعمدها بطريق الإمبراطورية عام ٩٥٦م - ٩٧٠م وسميت باسم هيلينا . والبعض يرى أنها اعتنقت المسيحية قبل ذلك بعدة سنوات .. والواقع أن هذا الحدث فتح عصرا جديدا في العلاقات بينهم وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أرضا صالحة للقيام بعملها التبشيري في روسيا^(٢) .

ونتيجة لهزيمة البلغار على أيدي الروس زاد طمعهم في الممتلكات البيزنطية . ففي عام ٩٧٠م تقدم الأمير الروسي سفيا توسلاف إلى الحدود البيزنطية ودخل تراقية وأخذ يلتمس طريقه إلى العاصمة البيزنطية ، الأمر الذي أثار الذعر في القسطنطينية ، ولم يعد

(١) محمود عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، بيروت ، ص ١٨٩ - ١٩١ .

Rambaud, A, Empire Grecau Dixieme Constanantin Por Genete. Paris 1870. p.p. 380- 381.

Cam. Med. IV. P. 207.

(2) Schiumberger, G, UN Empete Ur byzantin Siecle Niecphore. Paris. 1980- 563.

أمام زمسيكس سوى الحرب فاستدعى قواده الكبار وتقابل الجيش البيزنطى مع القوات الروسية فتظاهر البيزنطيون بالانسحاب ، الأمر الذى أطمع الروس فى ملاحقتهم وكانوا قد أعدوا لهم الكمائن فى الأماكن التى تراجعوا منها وسدوا المنافذ التى يمكن للقوات الروسية استخدامها ونجح سفياتوسلاف فى هذه المرحلة فى ضم المجر والبشناق إلى جانبه ، فضلاً عن أمراء البلغار ، واغتر الأمير الروسى بما تحت يديه من قوات وتقدم خلف القوات البيزنطية حتى دخل منطقة الكمائن ، وفى الوقت المناسب ضربت القوات البيزنطية ضربتها وانتصرت انتصارا ساحقا على الروس وحلفائهم بالقرب من مدينة أدرنة واضطرت القوات الروسية إلى الانسحاب إلى بلغاريا .

وانشغلت الإمبراطورية البيزنطية ولكنها لم تحمل الجانب الروسى، ففى عام ٩٧٢م أعد يوحنا زمسيكس جيشا قويا ، كما أبحرت البحرية البيزنطية من نهر الدانوب ، وفى بريلاف نشبت معركة بين الجانبين انتهت بانتصار القوات البيزنطية انتصارا ساحقا وهلك عدد كبير من القوات الروسية وكانت كارثة من أعظم الكوارث التى حلت بالروس فى هذه المرحلة من الزمن، ووقع العديد من الأسرى فى أيدى القوات البيزنطية، وبعد هذه الأحداث فر الأمير الروسى إلى مدينة سيلستريا Silistria على نهر الدانوب فقتبعه يوحنا وانضم إليه الأسطول البيزنطى القادم من الدانوب غربا وهلك الروس فى هذا الحصار ، وانتهى الأمر بأن عرض الأمير الروسى الصلح على يوحنا فقبله^(١) .

فى هذه المعاهدة عرض عليه أن يسلم سيلسترا ، ويجلو عن بلغاريا ، وأن يعيد الأسرى ، مقابل أن يسمح له بالعودة إلى بلاده مع من تبقى معه فى الجيش الروسى، وألا تتعرض لعساكره السفن التى تحمل النيران الإغريقية ولما لم يكن لديه من القمح ما يكفى لمؤونة جيشه ، طلب إلى الإمبراطور أن يمدد بالقمح اللازم لجنده ، ثم طلب آخر الأمر أن يعتبر البيزنطيون ، الروس من بين الأمم الصديقة للإمبراطورية ، وأن يسمح لهم بالقدوم إلى القسطنطينية لبيع ما لديهم من السلع ، وتعهد الروس أيضا ألا يغيروا

(1) Schlum berger: LE popce. I. P. 52.

على أطراف الأرض التابعة لمدينة خرسون Cherson في شبه جزيرة القرم ، والتي تعتبر آخر ما للإمبراطورية من ممتلكات على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود ، وتعهد الروس أيضا أن يبذلوا المساعدة للبيزنطيين في رد كل عدو أجنبي ، وأعلن زمسكيس قبوله لما تقدم به سفياتو سلاف من مقترحات وأنقذ الصلح . وتم إرسال القمح إلى من تبقى من الجند الروس وحلفائهم وعدتهم اثنان وعشرون ألف مقاتل ، وتجدد أيضا ما كان للروس من امتيازات تجارية ، ثم جرى اللقاء بين سفياتو سلاف وزمسكيس وتلا هذا الاجتماع توقيع المعاهدة بين الروس والبيزنطيين .

وبعد أن تم عقد المعاهدة ، اتخذ سفياتو سلاف طريقه في نهر الدانوب حتى وصل إلى الشلالات وحيث احتشد البشناق متربصين له^(١)، إذ إن أهل بريسلاف أرسلوا إلى البشناق يخطرونهم أن سفيا توسلاف حصل من البلغار على غنائم وفيرة ، وليس في صحبته إلا جماعة قليلة العدد ، فأعد البشناق له كميناً هو رجاله وعند الشلالات قرب مصب النهر أخذت القوات تنفذ من عند الروس وحلت بهم جماعة شديدة وتحتم على سفياتو سلاف أن يمضى الشتاء في هذا الموضع (جزيرة Bielo Berejje) وعند حلول فصل الربيع أزمع المسير غير أنه تعرض له أمير البشناق ويدعى كوريه Kouria فاغتال سفياتو سلاف واحتز رأسه . وترتب على هذا الانتصار الكبير نتائج مهمة :

١ - تتمثل في أن الإمبراطورية تخلصت من عدو خطير ، ظهرت قوته باستيلائه على مملكة الخرز ، وإخضاع البلغار .

٢ - أن بلغاريا أضحت تحت السيادة البيزنطية ، فعلى الرغم من أن زمسكيس في أثناء قتاله ضد سفياتو سلاف ، وعندما أطلق سراح بوريس الملك البلغاري وأسرته من أسر الروس أعلن أنه مُض للانتقام للبلغاريين لما تعرضوا له من أذى الروس وقسوتهم ، فإنه لم تتوفر عنده النوايا الخالصة لإعادة نظام الحكم القديم .

(1) Ostogorowski: op. cit. p. 261.

وبعد موته بدد أبنائه بواسطة الصراعات الأخوية قواهم حتى ظهر من هو جدير بحمل المسؤولية ، وكان فلاديمير Valdimir - ٩٧٨ - ١٠١٥ م قد واجه مهامًا صعبة لإعادة بناء دولته في ظل نظام جديد ، واستطاع أن يحقق كثيرا من الإنجازات ، وأن يعيد البناء مرة أخرى على أساس اقتصادى قوى عمل له في السنوات الماضية^(١) .

ولقد أعقبت وفاة فلاديمير حروب أهلية أسفرت عن انتصار ابنه أيروسلاف ١٠١٩ - ١٠٥٤ ، وقد اهتم بتشريع القوانين وتقوية الكنيسة الأرثوذكسية ، واعتمد في سياسته الدينية على الزعيم الروحي الروسى هيلاريون مؤسس الحركة الديرية الروسية المسماة بالديرية الكيفية Monawtery of The Caves^(٢) .

وتعتبر سنوات حكم هذا الزعيم هى السنوات المشرقة الروسية أو ما يسمى بالانتعاش الحضارى ، فقد استطاع أن يصل بروسيا الكيفية إلى أعلى درجات التقدم واستمرار الخطط التى بدأها فى السنوات الأولى من حكمه ، وقام بتشجيع وتوطيد العلاقات الاقتصادية الروسية مع كل البلاد الآسيوية والأوروبية حيث أصبحت كيف مكانا لتلاقى التجار البيزنطيين والعرب والألمان والبولنديين والمجريين والاسكندنافيين ، وأصبحت أيضا مركزا للتنميات الحضارية الروسية ، وقد قام ببناء المدارس والمكتبات وشجع الفنانين والمتعلمين والموهوبين ، ودفع الناس إلى الاتجاه إلى المساعى السلمية ، وبالرغم من أن روسيا الكيفية كانت مرتبطة اقتصاديا وحضاريا بالإمبراطورية البيزنطية إلا أنها اتجهت إلى إقامة روابط عائلية مع الأجزاء الأخرى من العالم أيضا حيث كان أيروسلاف نفسه مرتبطا بملوك إنجلترا وفرنسا والنرويج وبولندا عن طريق المصاهرة .

وفى عهده جمعت فى روسيا أول مجموعة من القوانين كانت مماثلة للقوانين البيزنطية لكن محتواها كان أفضل ، ومن بين الحقوق والأعراف عند كل من السلاف والإسكندنافيين والألمان أخذ الروس بعض النظم السياسية فى التجارة والاقتصاد .

(١) السيد الباز العريبي : الدولة البيزنطية ، ص ٥٣٣ - Ostogorowski. P. 262

(2) Vernadsky op. cit. p. 40.

وتعتبر السنوات ١٠٥٤ - ١٣٣٣ من سنوات الاثنيار السياسى أو ما يعرف بالسنوات المظلمة، فعندما مات أيروسلاف ١٠٥٤م بدأ يختفى بريق السنوات المشرقة، وأملاً فى منع النزاع ترك لكل من ورثته الستة إدارة جزء واحد من هذه المملكة ، وأمر أبناءه الخمسة بطاعة الأكبر الذى سوف يحكم كأمر عظيم لكيف ، ويعتبر بذلك أنه أسهم فى تأسيس نظام جديد أدى إلى نتائج سلبية وإلى ضعف محقق لكيف ، لأن هذه الخطة لكى تنجح كانت تتطلب درجة أعلى من الوحدة السياسية والترابط الحضارى أكثر من الذى حققته روسيا الكيفية . وقد كانت قوة الأمير العظيم لكيف هى العامل الأساسى لربط العالم بالعائلة الحاكمة ليؤكدوا طموحهم فى السلطة والاستقلال ويشكلوا مجموعات مجاهدة ضد الأمير العظيم ، أو يجابهوا مع المنافسين الآخرين والمجرمين وآل كومنين قيام بيزنطة .

ثم تولى حكم كيف عام ١١١٣م أمير عظيم قوى نجح فى إخماد القوى وهو فلاديمير مونوماخ Valadimir Mon makh حفيد أيروسلاف ، وقد بذل جهداً كبيراً ليصل إلى اتفاق سلمى مع الأمراء المنافسين ، وبالرغم من أنه فشل فى إيجاد تنظيم عملى بينهم إلا أنه نجح فى صد البدو الموجودين على الحدود الروسية ، وأعطى الفرصة لكيف لتستعيد بعض رخائها السابق ، ولكنه لم يكن قادراً على تحويل قوة الهدم إلى قوى بناء . وبعد انتهاء عصر مونوماخ بدأت كيف تفقد قوتها كمركز للقوة السياسية والمدنية وبدأت مدن أخرى فى الظهور ، واكتسبت مدينة نوفوجورد Novgorod تفوقها شمالاً وجاليسيا Galicia تفوقها غرباً Suzdal وفلاديمير Valadimir شمال شرق ، وضعفت كيف بعد ظهور هذه المدن بصورة كبيرة . وفى عام ١١٦٩م حدث أن اتحدت القوات واجتاحوا المدينة ، وفى خلال ثلاثة أيام دمروها ونقلوا كنوزها وآثارها الحضارية^(١) .

وهكذا ضعفت كيف ، وتضافرت عدة عوامل على القضاء عليها ، فالبدو العاملون فى شمال البحر الأسود قد منعوا التجارة مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا مؤشر خطير على اقتصاد كيف ، وأسهموا فى تدمير المدينة وضعفها .

وفي تلك الأثناء كانت الدولة البيزنطية تعاني من ضعف اقتصادى وسياسى مما أدى إلى انعدام الدعم الاقتصادى لكييف ، وأصبحت روسيا فريسة سهلة لكل مغير من القبائل المجاورة ، وقد كان العديد منها رابضاً على الحدود :

١ - الكومانيون البدو الذين أزعجوا الولايات فى منطقة لاستيس .

٢ - اللتوانيون الذين جاءوا من المنطقة البلطيقية وبحثوا عن مستوطنة فى الولايات الروسية الشمالية .

٣ - السويدون الذين بحثوا عن كسب التحكم فى نيفا Neva ، وقطعوا التجارة فى نوفوجورد .

٤ - الهنغاريون فى الجنوب الغربى الذين جاءوا وواصلوا هجومهم ناحية الشرق .

٥ - التتار الذين اجتاحتوا روسيا من منطقة القوقاز وجاءوا من الجنوب الشرقى^(١) .

وتنتج عن اجتياح هذه القبائل القاطنة على الحدود سقوط وانهار كييف . وخلاصة القول : أنه لم يكن فى تاريخ دولة كييف ما يستدعى الانتباه سوى تنافس الأمراء وحروبهم الأهلية المدمرة وتحالفهم مع الهنغارين والبولنديين والكومان ضد بعضهم البعض من ١٠٥٤ - ١٢٤٠ م .

وليس عجباً أن تظل الحال على هذا المنوال فى روسيا فى العصور الوسطى ما دام حكامها من سلالة ريوريك يعتقدون أن الإمارة فى الدوقيات الروسية على اختلاف مدائنها إرث لا يتجزأ بل يتوزع بين أبناء الأسرة الحاكمة^(٢) ، استناداً على قاعدة السن بحيث يكون الأكبر سناً هو الأعظم جاهاً والأوسع سلطاناً مما جعل كل توزيع جديد بحالاً لترقيات فى الأقدمية بحسب السن ، فضلاً عن وجود ضغائن وأحقاد واختلافات لا نهاية لها بينهم .

(1) Sidney: op. cit. p. 17. 190.

Bayhes and Miss: Byzantium (oxford) 1063. p.

(2) Vernadsky: op. cit. p. 40.

ومن هنا يتضح كيف كان من المستحيل أن تقوم بين دوقيات نهر الدينير دولة ثابتة الأركان ، برغم مجيء أوروبسلاف إلى عرش الدوقية وهو الذى عرف باسم القانونى . ولكن أعقبت وفاته ١٠٥٤م مرحلة طحنت روسيا فيها بحروب متواصلة بين أبناء الأسرة الحاكمة. وفي أثناء تلك الحروب انتهك أحد الأبناء حرمة كييف سنة ١١٦٩م ونهبها وخربها وهى المدينة الهامة ذات الكنائس الأربعمائة ، وتجراً ونقل الدوقية من كييف الواقعة على نهر الدينير إلى مدينة اختارها لنفسه ، وهذا الابن هو أندريه سوزدال الذى أسس مدينة فلاديمير والى غدت ثانية العواصم الروسية^(١) .

وبسقوط كييف تختم المرحلة الأولى من تاريخ روسيا ، وهى مرحلة أتم الفارانجيون السويديون أثناءها الكثير من الأعمال الهامة .

التحول الدينى فى روسيا :

لقد كان انتشار المسيحية فى روسيا عملية تدريجية تبدأ بالطبقات العليا وتنتشر ببطء إلى الطبقات الأقل تمدنا ولكن هذا لا يعنى القضاء على الوثنية إذ استمرت العبادة السرية للآلهة الوثنية القديمة لعدة قرون عديدة . ولقد وجدت العناصر الوثنية طريقها حتى فى طقوس الإيمان الجديد ، ولكن تدريجياً بنيت بيوت العبادة وأسست الأديرة ودرج رجال الدين ، وبدأ الروس ينظرون إلى الكنيسة كمركزهم الروحى . وبعد ذلك انتشرت المسيحية فى كل مكان وعرفت البلد باسم روسيا المقدسة .

وفى الواقع ، إن تحول مملكة كييف الروسية إلى المسيحية لا يحدد فقط بداية عصر جديد فى تقدم روسيا ، بل يشير أيضاً إلى انتصار باهر لبيزنطة واتساع مجال التأثير البيزنطى إلى مدى لم يكن متوقعا ، وخضعت أكبر أمم السلاف ووضعت نفسها تحت القيادة الروحية بالقسطنطينية ، وأدارها من البداية مطارنة بيزنطيين أرسلتهم بيزنطة لهذا الغرض ، ولفترة طويلة ظل التقدم الحضارى لروسيا يسير تحت الحماية البيزنطية . وفى عهد فلاديمير ربطت علاقة هامة بين بيزنطة والأمير الروسى الذى ارتبط

(١) فشر : تاريخ ، ١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ . Cam. Med- His, VII- p. 600 - 602 .

اسمه بدخول المسيحية ، ذلك أنه عندما تمرد بارداس فوكاس Bradas Fkacas ضد الإمبراطور بازل الثاني Basil II وهجم مع أتباعه في إقليم آسيا الصغرى على العاصمة عندما هجم البلغارى في نفس الوقت على أراضي الإمبراطورية من ناحية الشمال أرسل بازل الثاني يطلب العون من الأمير الروسى .

وعقد الاتفاق بين الاثنين تعهد فيه فلاديمير أن يرسل ٦٠٠٠ جندي روسى لخدمة بازل الثاني ، كما وعد الأمير الروسى أن يعتنق هو وشعبه الديانة المسيحية على شريطة أن يزوج الأمير الروسى من شقيقة بازل الثاني وهى الأميرة Anne . وقد أرسل الأمير الجند الذى وعد بإرسالهم ، وتمكن بازل بمعاونتهم من أن يخدم حركة تمرد فوكاس ، غير أن بازل لم يف بوعده الخاص بالأميرة . فهاجم فلاديمير مدينة خرسان (Cherson) فى شبه جزيرة القرم Crimean واستولى عليها انتقاما من الإمبراطور ، وهنا اضطر بازل الثانى إلى أن يفى بوعده واعتنق فلاديمير المسيحية وتزوج من آن Anne ويحدد تاريخ المسيحية رسميا فى روسيا بعام ٩٨٩م . وبعد ذلك صارت العلاقات بين الجانبين علاقات حسنة^(١) .

ويعتبر دخول المسيحية إلى روسيا تحولاً جديداً فى حياتهم ، ويعتبر هذا الدين المسيحى المدعم بواسطة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة الذى عرف باسم الأرثوذكس الشرقية أو الأرثوذكس اليونانية^(٢) .

ظهرت هذه الكنيسة نتيجة للعديد من الانشقاقات التى دمرت الوحدة الأصلية للكنيسة المسيحية ، وبسبب هذه الانشقاقات تطور مركزان دينيان رئيسيان وهما : روما والقسطنطينية ، وبالرغم من أن الانفصال النهائى لم يحدث حتى عام ١٤٠٥م إلا أنه قد ظهر مركزان دينيان مميّزان فى القرن التاسع وهما: الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومركزها فى روما ، وكنيسة الأرثوذكس الشرقية ومركزها فى القسطنطينية .

(١) محمود سعيد عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ص ٢١١ .

(2) Schiumberger: L, Epopel. P. 759. Sidney: op. cit. p. 11 – 12.

إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المتطورة تحت التأثير البيزنطي اكتسبت خصائص مميزة كانت تتسم بالتأثير اليوناني أكثر من الروماني ، وحكمت بواسطة الأباطرة البيزنطيين ، وأثناء القرن العاشر كان العديد من الطبقات العليا الروسية متأثرين بالحضارة البيزنطية ، ومال الأمراء الحاكمون إلى الإيمان ببيزنطة .

وفي عام ١٩٨٨م استقبل فلاديمير في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وبعد ذلك بعامين أعلن المسيحية كديانة رسمية لبلاده وأمر كل الخاضعين له بأن يتنصروا. وبعد ذلك بدأ بتنظيم الكنيسة في روسيا فجعل مركزها الرئيسي في كييف وعرف رئيسها بالمطران ، وأصبح تابعا لبطريرك القسطنطينية ، وكان المطران المعين واحدا من اليونانيين ، وكان الكهنة والأساقفة في البداية من اليونان أو البلغار وقد اتبعت كنيسة الأرثوذكس عامة اللغة الدارجة للمناطق التي توغلت فيها ، لكن لغة الكنيسة السلافونية التي تطورت في بلغاريا كانت مرتبطة بشدة باللغة المتحدث بها في روسيا ، لذلك كانت تستخدم كلغة دينية . وحروف اللغة السلافونية المؤسسة على حروف اللغة اليونانية تطورت في الجزء الأخير من القرن التاسع بواسطة سيريك لكي يستطيعوا أن يترجموا الأدب الديني إلى اللغة الدارجة عن السلافة الشرقيين والغربيين ، وهكذا يسهل تحولهم الديني .

لقد ترجم ميتودوريوس أخو سيريل الإنجيل إلى اللغة السلافونية ، وهذه الترجمات كانت أولا أدبا مكتوباً متاحاً للروس ، وأصبحت نموذجا لأدبهم الديني فيما بعد ، ولقد استخدم أدبهم الديني اللغة السلافونية حتى القرن الثامن^(١) .

(1) Sidney: op. cit. pp. 12- 13.

الختامة

١ - اختلاف المؤرخين ، واختلاف المصادر حول أصل الروس ، فمنهم من يرى أنهم من النورمان أو أهل الشمال بصفة خاصة من الاسكندنافيين ، ومنهم من اعتبرهم جنساً من الصقالية (السلاف) .

٢ - إن هجرة السلاف الشرقيين إلى المنطقة المعروفة بالسهل الروسى أدى إلى انتشارهم في هذا السهل من أوروبا الشرقية إلى سيبيريا الوسطى ، ومن المحيط المتجمد جنوباً إلى جبال الكارثيان والبحر الأسود والقوقاز وبحر قزوين وجبال آسيا الوسطى .

٣ - تعتبر كثرة الأنهار وتعددتها وطولها هى السبيل الوحيد والتي أدت إلى سهولة الغارات والتنقل البحرى ، ويعتبر نهر الدنيبر والفولجا رابطين لأعظم خطين مائين في روسيا .

٤ - قبل القرن التاسع الميلادى كانت حياة الروس قوامها العشيرة التى تعيش في بيوت خشبية وتعتمد على تربية المواشى والصيد في الأنهار ، وكثرة التنقل . أما حياتهم الدينية فليس لديهم كهنة قائمون بالخدمات الدينية بل كانوا يلجئون إلى السحر ، وكان العالم يمثل لهم حياة غامضة مليئة بالأرواح الشريرة . أما حياتهم السياسية كان قوامها العشيرة ، ثم بدأت المدن في الظهور تدريجياً ومن أعظم المدن السلافية : كييف، شيرنيجوف ونوفوجورد .

٥ - تنمية القوة في مدينة كييف كانت في القرن العاشر ، وبدأت باستيلاء سغايوسلاف بن إيجور ٩٤٥ - ٩٦٤ م على الحكم ونمت هذه الدولة وأصبح لها كيان تحت حكم سلالة ريوريك .

٦ - روسيا الكيفية وبداية تنظيم الولايات واستقرارها كان بمجىء الإخوة الثلاثة من أسرة ريوريك الذين حرصوا على الاهتمام بولاياتهم ، وقاموا بإقامة اتصالات تجارية ممتدة من الجوار .

٧ - مواصلة أوج المسيرة ، وإثباته أنه أكثر طموحاً وقوة في توسيع وتقوية ولايته .

٨ - علاقة الروس بالبيزنطيين .

تراوحت تلك العلاقة بين الروس والبيزنطيين بين صراع وسلم . ففي البداية قامت على صراع دائم وإغارات مستمرة بدأت منذ عام ٨٦٠م على القسطنطينية . والواقع أن ذلك كان من أجل السلب والنهب والغنائم ، ثم دخلت مرة أخرى فعقدت بينهم معاهدة تجارية ٩٥٧م دعمت بزيادة امبراطور أولجا ، ثم عادت للحرب والغزو مرة أخرى ، ثم وقعت معاهدة صلح نتج عنها توطيد العلاقات بين الطرفين ١٠١٩ - ١٠٥٤م .

٩ - التحول الديني في روسيا : الانتشار للديانة المسيحية في روسيا كان تدريجياً وبدأ بالطبقات العليا ، ولكن هذا لا يعنى القضاء على الوثنية ، إنما استمرت العبادة السرية للآلهة الوثنية القديمة لعدة قرون ، ثم تدريجياً بنيت بيوت العبادة ، وأسست الأديرة ، ودرّب رجال الدين وبدأ الروس على الكنيسة كمركزهم الروحي ، وانتشرت المسيحية في كل مكان ، وعرفت البلاد باسم روسيا المقدسة .

١٠ - يعتبر دخول المسيحية على روسيا تحولاً جديداً في حياتهم ، ويعتبر هذا الدين المسيحي المدعم بواسطة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة الذي عرف باسم الأرثوذكس الشرقية .

١١ - إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المتطورة تحت التأثير البيزنطي اكتسبت خصائص مميزة ، وكانت تتسم بالتأثير اليوناني أكثر من الروماني .

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - ابن حوقل : (أبو القاسم بن حوقل النصيبى ت أواخر القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٧٢ م .
- ٢ - ابن خرداذبة : (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت حوالى ٣٠٠هـ - ٩١٢ م) ، المسالك والممالك ، إبريل ، ١٨٨٩ م .
- ٣ - ابن عدارى : (من كتاب القرن السابع عشر الهجرى) ، البيان المغرب ، ١٩٥٠ م ، بيروت ، ط ٢ .
- ٤ - ابن القوطية : (أبو بكر محمد بن عمر ت ٣٦٧هـ) ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ١٩٨٢ م ، بيروت .
- ٥ - السبرونى : (محمد بن أحمد ت ٤٣٠هـ - ١٠٣٨ م) ، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ، نشر رمزى رايت ، اكسفورد ، ١٩٣٣ م .
- ٦ - خليل بيدس : العقد التنظيم فى أصل الروسيين واعتناقهم الإيمان القويم ، بيروت ، ١٨٩٧ م .
- ٧ - السيد البازر العرينى : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، بيروت / ١٩٨٢ م .
- ٨ - فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، ١٩٦٨ م ، القاهرة .
- ٩ - لىلى عبد الجواد : تاريخ الروس ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٠ م ، القاهرة .
- ١٠ - محمد محمد أمين : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية .
- ١١ - محمود سعيد عمران : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، ط ٢ ، ٢٠٠٢ م ، بيروت .
- ١٢ - المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسن ت ٣٤٦هـ - ٩٥٧ م) ، كتاب البلدان ، ليدن ، إبريل ، ١٩٧٦ م .
- ١٣ - المسعودى : مروج الذهب ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
- ١٤ - المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨هـ - ٩٩٨ م ، البدء والتاريخ ، ط ٤ ، باريس ، ١٩٠٧ م .
- ١٥ - المقرئ : أحمد بن محمد المقرئ التلمسانى ت ١٠٤١هـ ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محبى الدين ، ط ٣ ، دار الكتاب العربى ، بيروت .
- ١٦ - الموسوعة العربية العالمية ، ط ٢١ ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع .

قائمة المراجع الأجنبية

- 1- Baynes and H. moss: Byzantium an Introduction to East Roman Civilization' Oxtord. 1961.
- 2- Cam- Med- His. Part. I. 1964.
- 3- Chronique de Nestir (ed) Leger- Paris- 1884.
- 4- Durant. W.; The age Of Faith. 325- 1300- New York- 1950.
- 5- Edward acton: The Present and The Past, Russia- 1987- London.
- 6- Florinsky: Russia. V. 1. Newyork- 1953.
- 7- Francis Carr: Ivan The Terrible- 1981- New York.
- 8- Fennel Yohn: The Crisis Of Medieval Russia- 1200- 1304- London- Longman.
- 9- Grekov: Kiev Rus. Moscow- 1959.
- 10- Kluchevsky. (V): A history Of Russia Tr. C. Y. Itogarth- 1911- 1931.
- 11- Mawer: The Viking- Cambridge- 1930.
- 12- Minor skyu (ed): Hudud al- Alam- London- 1037.
- 13- Rybakov: Early Centuries of Russian History H. From The Russian by John Weir- Moscow- 1965.
- 14- Pares: A History Of Russia Methuen London. 1962.
- 15- Pirenne: A History Of Eyrope From The Invosions To The Xvi Century New York, 1955.
- 16- Rambaud: Histoire de La Russia Depuis Les Origines Insqua- Lan 1877- Paris.
- 17- Robert Auty and Dimitri Obolensky: Companion To Russian Studies an Introduction To Russian History, Cambridge.
- 18- Sidney Harcave: Russia A History. London- 1954.
- 19- Vasilliev, A. History Of Byzantin Empire. V I. (Madison) 1964.
- 20- Vernadsky. G. A History Of Russia Yala- 1954.
- 21- Oblonsky: Companion To Russian Studiesan Introduction To Russian History.